

آداب وخدمات

السكن الداخلي في المدرسة عند المسلمين

د. محمد منير سعد الدين

من مفاخر التعليم عند المسلمين تخصيص مساكن للطلبة بغرض الانقطاع للعلم ، والتفرغ للتحصيل والدرس والبحث ، وإقامة الشعائر الدينية ، ومراعاة المناخ العلمي والسلوكي الجيد ، وتوفير الكثير من الخدمات التي تقدم لهم عادة في منازلهم . ولقد وضعت قواعد تنظم السكن في تلك المدارس الداخلية بشكل دقيق « بحيث تراعى حالة الساكن الصحية ، واختيار المكان الملائم له ، كما روعي المستوى الأخلاقي للطلبة عند اختيار أماكن سكنهم بالمدرسة مما يضمن حسن العلاقة بين جميع الساكنين » (١) .

ووفر واقفو المدارس للطلبة « المسكن المناسب كي يجد الطلبة الغرباء والفقراء راحتهم وأمنهم واستقرارهم ، مما يساعد على الانقطاع للعبادة وطلب العلم ، فكان من مكملات المدرسة إنشاء بيوت خاصة للطلبة ملحقة ببناء المدرسة وهي شبيهة بالمدن الجامعية اليوم ، مع الفارق الكبير في وفرة الخدمات التي تقدمها للطلبة الساكنين بها ، بتوفير جو من الهدوء والراحة والنظام » (٢) .

فالمدرسة مساكن للطلبة وأماكن للتعليم « حيث اعتمد في تصميمها المعماري على قاعة كبيرة للدرس اصطفت على جوانبها غرف الطلبة أو قاعة للنوم في بعض الأحيان من طابقين يتوسطهما صحن مكشوف ، وقد تضمنت مصلى صغيراً لتؤدي فيه الصلوات ، وكانت هذه المدارس تقدم للطلبة الغرباء غرفة لكل طالب ، وكان في بعض هذه المدارس ما يزيد على المائة غرفة » (٣) .

وكانت مساكن الطلبة آية من آيات الفن المعماري ، تبدو على جدرانها الزخارف بالنقش العربي الهندسي والبنائي ، وكان ما يبعث على الإعجاب ، وما يدل على الذوق

الفني الرفيع ذلك التقدم والتطور الذي يحدث على الزخارف سواء لجهة الصناعة أو الأشكال الزخرفية نفسها ، وتوافرت في هذه المساكن « أسباب الراحة والصحة حتى ينصرف الطالب الى حضور حلقات الدروس والمطالعة في المكتبة واعداد الدروس بغرفته ، ولا يتكلف الطالب نظير ذلك أي شيء مادي » (٤) .

وقد توفرت في السكن الداخلي الوسائل الترويحية الضرورية فلم « تغل الحياة داخل المدرسة من بعض الاحتفالات التي تقام للترفيه والتوسعة على العاملين في المدرسة سواء من المدرسين أو الطلبة وغيرهم في المواسم الدينية ، فتفرق عليهم اللحوم والسكر والمأكولات والحلوى خصوصاً في الأعياد وشهر رمضان ويومي تاسوعاء وعاشوراء » (٥) . ولم تكن أعداد الطلاب في غرفة السكن الواحدة بالاعداد الكبيرة كما يحدث عادة في أيامنا هذه ، بل كان هذا العدد وسطاً بحيث يكون مناسباً لتنمية الاتصال الاجتماعي واكتساب الفضائل والصفات الاجتماعية .

ولقد تنافس الطلبة على سكنى المدارس مما جعل المقريري يشير الى ذلك وهو يتحدث عن المدرسة «الصاحبية البهائية في مصر فيقول: « كانت من أجل مدارس الدنيا وأعظم مدرسة بمصر يتنافس الناس من طلبة العلم في النزول بها ، ويتشاحنون في سكنى بيوتها حتى يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الاثنان من الطلبة والثلاثة » (٦) وفي هذا أيضاً إشارة الى عدد الطلبة في الغرفة الواحدة ، ويبدو استكثار ذلك في رأي المقريري .

الخدمات المقدمة لطلبة الأقسام الداخلية في المدارس

١ - الطعام واللباس والجرايات أو الرواتب :

كان يقدم للطلبة في السكن الداخلي الطعام الذي يُعد في مطبخ خاص في المدرسة ، ويقوم به طبّاخ خاص ، وله مساعدون يقومون باعداد الطعام وتوزيعه عليهم .
فهذه حجة السلطان حسن بن قلاوون تشير الى أنه كان يقدم لطلاب السكن الداخلي « خبز ، وأرز ، وعسل ، وجبوب ، وحب رمان ، وغير ذلك » (٧) .
وكذلك كانت تقدم للطلاب المعاليم أو الرواتب الشهرية « والثياب طيلة مدة اقامتهم فيها وكانت الأوقاف الخيرية هي التي تتحمل تلك النفقات » (٨) .

٢ - الرعاية الطبية :

لم يهمل مؤسسو المدارس الرعاية الطبية الشاملة للمدرسين والطلبة ومن معهم من أصحاب الوظائف بالمدرسة سواء كانوا من المقيمين فيها أو في خارجها ، فالطبيب لم يقصر مداواته على الموظفين والطلبة المقيمين بها فقط ، بل كان يداوي من يحضر من الطلبة وأرباب الوظائف ممن ليس لهم سكن فيها .
فهذه المدرسة المستنصرية كان من شروط وقفها أن يكون هناك طبيب « يطب من يعرض له مرض من أرباب هذا الوقف ، ويعطي المريض ما يوصف له من أدوية وأشربة وغير ذلك » (٩) .

وجاء في حجة السلطان حسن بن قلاوون (٦٨٧ هـ / ١٢٧٩ م - ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م) أن يرتب الناظر في المدرسة طبيبين كل منهما يحضر في كل يوم إلى المدرسة ، « يدأوي من يحتاج إلى المداواة من أرباب الوظائف والطلبة المقيمين بالاماكن ومن يحضر اليها من الطلبة وأرباب الوظائف ممن ليس له سكن ، ويتوجه إليه الطبيب في مكان اقامته ولا يكلف المريض الحضور إلى الطبيب » (١٠) .

وكان من شروط مدرسة الطب في المستنصرية أن يكون فيها طبيب « يطب من يعرض له مرض من أرباب وقفها ، وأن يُعطى المريض ما يوصف له من الأدوية والأشربة والأكحال السائلة » (١١) .

٣ - النظافة ، والحراسة ، والانارة :

لقد وضع للسكن في المدرسة نظام دقيق للدخول والخروج وخاصة بالنسبة لمساكنها الداخلية، فكان هناك الحارس البواب ومهمته ملازمة باب المدرسة لصيانتها وحفظ ما فيها من متاع ، وعدم السماح لمن لا يقيمون فيها بالدخول أو غير المرغوب فيهم ممن هم متهمون بالفساد وسوء الخلق ، ويشير المقرئ أن « لا يمكن غريباً يصعد إليها » (١٢) . وعلى البواب أن يكون يقظاً أميناً ، ولا يترك الباب إلا لعذر ويستخلف من يقوم مقامه في حال غيبته .

وكان هناك الفراشون الذين يقومون بعملية تنظيف المدرسة ومساكنها الداخلية ، من كنس ورش وتنظيف الفرش ونفضها ، وكثيراً ما توزع الأعمال بينهم بالتناوب . وهناك أيضاً القومة الذين يتولون الاشراف على انارة المدرسة ومساكنها الداخلية، وتعمير القناديل للطلبة ، وعمل الصيانة اللازمة لها من المسح والتنظيف .

آداب السكن في الأقسام الداخلية في المدرسة

لقد حرص الفقهاء المسلمون على تحديد العلاقة بين الطلبة والمدرسين الساكنين في المدرسة ، والمحافظة على مبنائها وصيانتها ، وعلى سمعة المدرسة من خلال أدب وحسن العلاقة بالجيران ورفاق الدراسة .

١ - اختيار غرف السكن :

لقد لاحظ الفقهاء الربون المسلمون تلك الفروق الفردية بين الساكنين من النواحي الجسمية، والعقلية، والاجتماعية، والنفسية، والسلوكية بشكل عام ، فأروا أن تكون « المساكن العالية لمن لا يضعف عن الصعود اليها » (١٣) ، وخصصوا المساكن السفلى كما قال ابن جماعة « للضعيف ، والمتهم ، ومن يقصد للفتيا والاشتغال عليه ، فالمساكن السفلى أولى بهم ، والمراقبي التي تقرب من الباب أو من الدهليز أولى بالموثوق بهم ، والمراقبي الداخلة التي يحتاج فيها إلى المرور بأرض المدرسة أولى بالمجهولين والمتهمين » (١٤) .

٢ - أدب الدخول والخروج والصعود والنزول في المدرسة :

لقد طلب الى الساكن في البيوت العليا أن يخفف « المشي والاستلقاء على أرضها ، ووضع ما يثقل كيلا يؤذي من تحته » (١٥) .
وإذا اجتمع اثنان من سكان الطبقات العليا في البناء فإذا كانا « في أعلى الدرجة بدأ أصغرهما بالنزول قبل الكبير والأدب للمتأخر أن يلبث ولا يسرع في النزول الى أن ينتهي المتقدم الى آخر الدرجة من أسفل ثم ينزل فان كان كبيراً تأكد ذلك ، وإن اجتمعا في أسفل الدرجة للطلوع تأخر أصغرهما ليصعد أكبرهما قبله » (١٦) .

٣ - الحذر من المشي في باحة المدرسة دون حاجة :

على الطالب الساكن في القسم الداخلي أن « لا يكثّر التمشي في ساحة المدرسة بطلاً من غير حاجة الى راحة أو رياضة أو انتظار أحد ، ويقلل من الدخول والخروج ما أمكنه ويسلم على من بالبواب إذا مرّ به » (١٧) .

٤ - مراعاة حقوق الساكنين في المدرسة :

على الساكن في المدرسة أن يوطد علاقاته مع من يعيش معهم ، فهم أسرة واحدة تربطهم روابط متعددة ، مما يتطلب منه « افشاء السلام ، وإظهار المودة والاحترام ، وإراعي حق الجيرة والصحية والاخوة في الدين والحرفة لأنهم أهل العلم وحملته وطلابه ، ويتفانل عن تقصيرهم ويغفر زللهم ، ويسترعوراتهم ، ويشكر محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئتهم » (١٨) .

ويحذر الساكن في المدرسة من رفع « صوته جداً في تكرار أو نداء أحد أو بحث كيلا يشوش على غيره بل يخفضه ما أمكنه مطلقاً سيما بحضور المصلين أو حضور أهل الدرس . ويتحفظ من شدة وقع القبقاب والعنف في اغلاق الباب ، وازعاج المشي في الدخول والخروج والصعود والنزول وطرق باب المدرسة بشدة لا يحتاج اليها ونداء من بأعلى المدرسة من أسفلها الا أن يكون بصوت معتدل » (١٩) .

٥ - النهي عن الجلوس في باب المدرسة :

على الساكن في المدرسة أن لا يتخذ من باب المدرسة مجلساً له « بل لا يجلس اذا أمكن الا لحاجة أو في ندرة لقبض أو ضيق صدر ، ولا في دهليزها المهتوك الى الطريق ... لا سيما [إذا كان جلوسه] فيما يستحيا منه أو ممن هو في محل تهمة ولعب » (٢٠) . لأن الداخل قد يكون طالباً بحوزته طعام أو حاجة يستحي أن يراها الآخرون ، أو يدخل نساء مما يربك الداخل أو الواقف بالبواب .

٦ - الحذر من النظر في بيوت الآخرين وطاقات وشقوق الأبواب :

على الساكن « أن لا ينظر في بيت أحد في مروره من شقوق الأبواب ونحوه ، ولا يلتفت اليه اذا كان مفتوحاً ، وإن سلّم سلّم وهو مار من غير التفات ، ولا يكثّر من الإشارة الى الطاقات لا سيما اذا كان فيهن نساء » (٢١) .

٧ - الابتعاد عن كل ما فيه ريبة وسوء :

ينبغي للسكان أن لا يدخل إلى المدرسة من هو مشار شك وريبة ، ولا من « يكره أهله ، أو من ينقل سيئات سكانها ، أو ينم عليهم ، أو يوقع بينهم أو يشغلهم عن تحصيلهم ولا يعاشر فيها غير أهلها » (٢٢) . وإذا كانت المدرسة « مكشوفة إلى الطريق فعلى السالك من باب أو شباك التحفظ فيه عن التجرد عن الثياب وكشف الرأس الطويل من غير حاجة ، وعليه أن يتجنب ما يعاب كالأكل ماشياً وكلام الهزل غالباً والبسط بالنعل وفرط التمثلي والتمايل على الجنب والقفا والضحك الفاحش بالقهقهة ، ولا يصعد إلى سطحها المشرف من غير حاجة أو ضرورة » (٢٣) .

٨ - السماح بسكنى المدرسة والمبيت خارجها :

لم يكن الالتحاق بالمساكن المدرسية « ميسراً لكل راغب ، بل وضع واقفو المدارس قواعد معينة ، تحكم نظام المسكن كأن يكون الطالب أعزب أو متزوجاً ، وكان جو السكن في المدرسة وسطاً بين الحرية والتضييق ، ويوفر فيه للطلاب شعور بالاطمئنان كالشعور الذي يحسون به في بيوتهم ، وقد سمح لهم بالمبيت خارج المدرسة ليتمكن الطالب من زيارة أهله أو قضاء حاجاته ورعاية مصالحه أو للنزهة والترويح عن النفس حتى لا تصبح الإقامة في المدرسة منفرة ومقيدة لحريةهم ، أما إذا لم تستوعب البيوت كل الطلبة فيسمح لمن ليس له مسكن بالمبيت خارج المدرسة لمخبر ترتيب مكان له أو خلو أحد البيوت من ساكنيه فينزل مكانه » (٢٥) .

كذلك لا يسمح أن يسكن المدرسة من هو « وسيم الوجه ، أو صبي ليس له فيها ولي فطن ، وأن لا يسكنها نساء في أمكنة تمر على أبوابها الرجال ، أو لها كوى تشرف على ساحة المدرسة » (٢٦) .

٩ - صيانة المباني المدرسية الداخلية وتجهيزاتها :

لقد حرص الفقهاء وواقفو المدارس على توجيه الساكنين بالمحافظة على سلامتها انطلاقاً من أنها مؤسسات خيرية عامة رصدت للصالح العام ، فالساكن في المدرسة عليه أن لا « يتوضأ من الفسقية لأنها مخصصة للشراب أو الصهريج أو الزير ، وعلى سطوح المساجد » (٢٧) .

وعليه المحافظة على الفرش والحصر والقناديل ، والأثاث ، والمباني « لأن مباني المدرسة كانت ملكاً عاماً لصالح الجماعة الإسلامية لا يجوز لأحد أن يتصرف فيها كما لو كانت من أملاكه الخاصة » (٢٨) .

ويتضح من القواعد السابق ذكرها « طابع المغالاة في المحافظة على مباني تلك المدارس مما يعكس بدوره رغبة المعاصرين في بقاء تلك المدارس أطول فترة ممكنة باعتبارها مرافق عامة تخدم المجتمع ككل » (٢٩) .

سكنى العلماء في المدارس

لقد سمح للشيوخ الأجلة العلماء « الاقامة في المدارس والزوايا ليلاً نهاراً والمتعاهدين على أحوال الطلبة والمعيدين والمبتدئين جميعاً والملاحظين آداب المدارس العالية والمتوسطة والمكاتب الصغيرة، والمثبتين بأصول الدين وأحكام الشرع المتين والمعاونين للأخذين من سكان المدرسة خاصة والمتعلمين عامة في العلم والأدب والخلق وتزكية النفس، والمحافظين على خدام المدرسة والمهتمين بها، والناظرين الى الخارجين والداخلين فيها، والقائمين بخطط العمارات والزوايا والايوانات والجوامع والمحاريب والقباب وغيرها من الأوقاف والجرايات، أمر عظيم تتحير به العقول وتتعجب فيه النفوس ولأولي الألباب فيه عبرة وبصيرة، فأي آيات الله تنكرون - أو بأي آيات العلم تكذبون - » (٣٠) .

واشترط على المدرس الساكن بالمدرسة أن يلتزم بالوقار والهيبة، وعدم الدخول أو الخروج من غير حاجة فتسقط حرمة، وأن يكون القدوة والمثل لغيره .

وهناك أمثلة من التراث عن سكنى المدرسين في المدارس، فهذا ابراهيم بن يحيى الكلبي (ت ٥٢٤ هـ / ١١٢٩ م) عندما دخل بغداد « أقام بالمدرسة النظامية سنين عديدة » (٣١) .
« وقدم الشيخ بهاء الدين أبو طالب سعد بن اليزيدي (ت ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م) الى بغداد شاباً وسكن المدرسة النظامية » (٣٢) .

ويذكر ستانلي لين بول

« أن المدرسة الناصرية التي بناها صلاح الدين الأيوبي بمصر كانت تشمل مساكن للطلاب والمدرسين » (٣٣) .

بعد هذا العرض للوائح والتعليمات الخاصة بالسكن في مباني المدرسة، نرى ما هدفت اليه من توفير الهدوء والراحة والخدمات للطلبة والمدرسين، والى تطبيقات سلوكية عملية، من قيام أواصر الود والاحترام والتعاون بين الطلبة وزملائهم، والطلبة ومدرسيهم، مع الأخلاقيات المترتبة على ساكني المدارس مع الجيران، والحفاظ على سمعة المدرسة وبالتالي على أسرته كاملة .

ومما لا شك فيه أن « جميع هذه التوجيهات تتفق والسلوك التربوي الجاد ويقصد منها الصالح العام، لا تناقض شيئاً من تعاليم الاسلام، وليست قيوداً كما تصورها بعض الباحثين، لأن التربية الحديثة ليست هي المقياس الأمثل الذي نقيس عليه الأنظمة التربوية الأخرى، إذ لكل أمة نظمها وتقاليد تربوية » (٣٤) .

وأيضاً يتضح من هذه التوجيهات أن الهدف منها « تدريب وتعليم الطلاب في المدرسة، وموظفيها على المحافظة على الملكية العامة، واستثمارها الاستثمار الأمثل، وتكوين حاسة الشعور بالمسؤولية » (٣٥) .

تلك هي الصورة الناصعة لأقسام داخلية في مدارس انتشرت في مصر والشام والعراق والمغرب العربي، وأصبحت مرفقاً من مرافقها الهامة .

□ الهوامش :

- ١ - عبد الغني محمود عبد المعطي : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٨٤، ص ٣٠٥ .
- ٢ - علي سالم النباهين : نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ٣١٦ .
- ٣ - محمد عادل عبد العزيز : التربية الإسلامية في المغرب أصولها الشرقية وتأثيراتها الأندلسية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ ، ص ٥٢ .
- ٤ - المرجع نفسه : ص ٥٢ - ٥٣ .
- ٥ - عبد الغني محمود عبد المعطي : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، مرجع سابق ، ص ٣٠٣ .
- ٦ - المقرئزي : الخطط ، ج ٢ ، دار صادر ، بيروت ، د.ت ، ص ٣٧١ .
- ٧ - عبد الغني محمود عبد المعطي : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، نقلا عن حجة السلطان حسن بن قلاوون مرجع سابق ، ص .
- ٨ - محمد عادل عبد العزيز : التربية الإسلامية في المغرب أصولها الشرقية وتأثيراتها الأندلسية ، مرجع سابق، ص ٥٢ .
- ٩ - ابن الفوطي : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، تصحيح وتعليق مصطفى جواد ، مطبعة الفرات . بغداد ، ١٣٥ هـ ص ٥٩ .
- ١٠ - عبد الغني محمود عبد المعطي : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، مرجع سابق ، (نقلا عن حجة السلطان حسن بن قلاوون ، ٨٨١ أوقاف ، ص ٢٠٦ .
- ١١ - ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ج ١ ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٦٥ ، ص ٣٨٩ .
- ١٢ - المقرئزي : الخطط ، ج ٢ ، مرجع سابق ، ص ٣٨٢ .
- ١٣ - ابن جماعة : تذكرة السامع في أدب العالم والمتعلم ، تحقيق محمد هاشم الندوي ، دار المعارف ، حيدر آباد ، ١٣٥٤ هـ ، ص ٢٢٣ .
- ١٤ - المكان نفسه .
- ١٥ - المرجع نفسه ، ص ٢٣٠ .
- ١٦ - المرجع نفسه أيضا ، ص ٢٣١ .
- ١٧ - المكان نفسه .
- ١٨ - المرجع نفسه والمكان نفسه .
- ١٩ - المرجع نفسه ، ص ٢٣٧ .
- ٢٠ - المرجع نفسه ، ص ٢٣١ .
- ٢١ - المرجع نفسه ، ص ٢٣٧ .
- ٢٢ - المرجع نفسه ، ص ٢٢٩ .
- ٢٤ - عبد الغني محمود عبد المعطي : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، مرجع سابق ، ص ٣٠٣ .
- ٢٥ - المرجع نفسه ، ص ٣٠٣ .
- ٢٦ - ابن جماعة : تذكرة السامع في أدب العالم والمتعلم ، مرجع سابق ، ص ٢٥٥ .
- ٢٧ - ابن الحاج العبدري : المدخل ، (٤ أجزاء) ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ، ص ٢١٣ ، ٢١٧ .
- ٢٨ - عبد الغني محمود عبد المعطي : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، مرجع سابق ، ص ٣٠٥ .
- ٢٩ - المرجع نفسه .
- ٣٠ - تعليق محمد هاشم الندوي في مقدمة كتاب تذكرة السامع في أدب العالم والمتعلم لابن جماعة ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .
- ٣١ - ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، دار المأمون بمصر ، د.ت ، ص ١٢١ .
- ٣٢ - ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، مرجع سابق ، ص ١٢٤ .
- ٣٣ - أحمد شلبي : التربية الإسلامية ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص ٢٢٣ .
- ٣٤ - علي سالم النباهين : نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر ، مرجع سابق ، ص ٣١٩ .
- ٣٥ - المرجع نفسه : ص ٣٢٠ .